الأمير عبد القادر القائد الرائد في الذكرى المئوية الثانية لميلاده (1807 - 2007)

د. محمد ابن سمينة

جامعة بن يوسف بن خدة –الجزائر -

مدخل : يعتبر التاريخ في أبرز اهتماماته السجل الأمين الذي يحفظ للأمم حصيلة ما أبدعته عبقريات رجالها من آثار وأعمال ومواقف

عبر مختلف الأجيال والعصور . ولهذه الأهمية كانت الجزائر تولي عناية فائقة بإحياء ذكريات عظمائها، من العلماء العاملين، و القادة المجاهدين، والزعماء السياسيين، والصالحين المصلحين، اعتزازا بسيرهم ، واستلهاما لآثارهم ..

وقد مرت بنا في غضون شهر سبتمبر المنصرم الذكرى المئوية الثانية لميلاد الأمير عبد القادر بطل الثورة الجزائرية الرائدة ، وقائد المقاومة الوطنية الذائدة ، وأحد أبرز عظماء الأمة في العصر الحديث .

وتأتي هذه الكلمة من وحي هذه الذكرى ، إحياء لجهاد الأمير في حياتنا، واقتداء بسيرته في سلوكنا، وترسيخا لمفاخره في ذاكرتنا، ليكون من ذلك لأجيال أمتنا المرجعية الأساسية في عملية إحياء أمجاد الماضي، وبناء صرح الحاضر، واستشراف آفاق المستقبل...

لقد كانت الجزائر تعيش في أواخر العهد العثماني - كغيرها من بلاد العالم العربي والإسلامي ظاهرة التخلف الحضاري الموروث عن عصر الضعف. وفي هذا الوقت وفي الضفة المقابلة، كانت بلاد الغرب الأوربي قد دخلت عصر النهضة الحديثة، وطفقت تكسب بعض أسباب القوة من علم ونظام وصناعة وعمران، فكانت هذه المفارقة ما بين الشرق والغرب من بين أبرز العوامل التي شجعت الفرنسيين على أن يوجهوا أنظارهم نحو الجزائر طمعا في خيرات

أراضيها، وحرصا على الاسترزاق بـ (قمحها وشعيرها)، وغيرهما من غلال سهولها وجبالها وصحاريها، ورغبة في الاستجمام بجمال مناخها، و الاستمتاع بإشراقة شمسها . فأقدموا سنة 1830م، على احتلال الجزائر احتلالا استيطانيا : اجتماعيا واقتصاديا، لغويا وثقافيا وحضاريا ...

وما كان من الشعب الجزائري الأبي عقب هذه الحملة الصليبية الجديدة إلا أن تنادى للجهاد ، فوحد صفوفه وجمع أمره وبايع الأمير عبد القادر العالم المجاهد والزعيم الرائد والبطل القائد للمقاومة الوطنية ضد المحتلين ، فسارع الأمير إلى تحمل هذه المسؤولية والنهوض بها على خير ما يرام.

وقد مر الأمير خلال حياته بثلاث مراحل هي :

1 – المرحلة الأولى (1807 - 1830م) وتغطي فترة النشأة والتكوين .

2 -المرحلة الثانية:(1830 -1847م)وقد قضاها الأمير قائدا للمقاومة الوطنية.

3 – (1848 - 1883) قضاها الأمير المجاهد أسيرا في سجون فرنسا، ثم مقيما في بروسة بتركيا، ثم في دمشق الشام .

وماذا بعد، عن سيرة الأمير ، وجهاده، وتضحياته..؟

المرحلة الأولى (1807 - 1830م) وتغطي فترة النشأة والتكوين .

1 - **نسب الأمير وولادته :** يتصل نسب الأمير عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى (...) بالحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة ابنة محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فهو إذن من آل البيت، من السلالة النبوية الشريفة [1]، ويقول الأمير في هذا المضمار :

ولاسيما أهل السيادة مثلنا بنو الشرف المحض المصان عن الهوى
مناقب مختارية قادرية تسامت وعباسية مجدها احتوى [2]

وقد ولد الأمير ببلدة (القيطنة) الواقعة على وادي الحمام قرب مدينة (معسكر) بالغرب الجزائري (يوم الجعة 23 رجب 1222 هـ /26 سبتمبر 1807م) [3]

2 - **نشأته وتعلمه :** نشأ في أسرة متدينة تحت رعاية والده الشيخ محيي الدين بن مصطفى (1190 - 1249هـ/ ؟ - 1834م) الذي كان عالما متدينا صوفيا تقيا مقدما للطريقة القادرية ومؤسسا لزاويتها بالقيطنة [4] .

يصور الأمير محمد بن عبد القادر بعض الملامح من نشأة والده فيقول : ((ونشأ على عفة وصيانة ، مرضي الحال ، محمود الأقوال والأفعال .)) [5]

استهل تعلمه في (الكتاب) بالزاوية القادرية ببلدته القيطنة فحفظ القرآن الكريم وهو في السنة الرابعة عشر من عمره، وتلقى بعض المبادئ من العلوم الدينية واللغوية وغيرها . ثم انتقل إلى مدينة

(أرزيو) فدرس على قاضيها الشيخ أحمد بن الطاهر . ومنها سافر إلى مدينة وهران فاختلف إلى مجلس دروس الشيخ أحمد بن خوجة بيد أنه لم يلبث بهذه المدينة إلا سنة واحدة رجع بعدها إلى بلدته 1823م ، فواصل بها تعلمه . ثم قام والده في هذا العالم، فبنى له بيته بتزويجه بـ(لاله خيرة) ابنة عمه علي بن أي طالب.[6]

وقد استمر الأمير في عملية الطلب هذه في عدد من بلاد المشرق التي زارها خلال رحلته المتعددة ، يأتي في مقدمتها : رحلته إلى البقاع المقدسة بالحجاز، صحبة والده (1825 - 1826م) لأداء فريضة الحج، وخلال هذه الرحلة زار (تونس ومصر والشام والعراق) وغيرها .

و كان الأمير - وهو في طريقه في هذه الرحلة إلى البقاع المقدسة - قد مر بتونس فالتقى فيها بأحد علمائها، وهو الشيخ الفقيه أحمد المازري، كما التقى عند نزوله بالقاهرة ببعض علمائها من بينهم : (الشيخ علي الميلي والشيخ فراج والشيخ ابن الأمير) [7] .

كما كان له مع أمثال هؤلاء من العلماء في الحجاز، وفي بغداد التي مكث فيها أثناء هذه الرحلة حوالي شهرين زار خلالهما ضريح القطب الرباني الولي الصالح الشيخ عبد القادر الجيلاني (الكيلاني)،(ت 1166م) واجتمع بهذه المناسبة مع نقيب الأشراف مقدم الطريقة القادرية الشيخ محمود القادري الذي أجازه مشافهة

وكتابة ، ثم نزل بدمشق الشام فأخذ العلم على بعض علمائها ، من أبرزهم : الإمام المحدث أبو أحمد عبد الرحمن الكزبري، والإمام الصوفي ضياء الدين بن خالد بن أحمد. النقشبندي السهروردي .

ثم غادر الأمير ووالده بلاد الشرق عائدين إلى أرض الوطن، فقصدا - وهما في هذا الطريق - البقاع المقدسة فأديا بها فريضة الحج للمرة الثانية، ثم واصلا سيرهما إلى الجزائر عبر القاهرة فليبيا فتونس حتى نزلا ببلدتهما القيطنة 1828. وقد استغرقت - إذن - رحلتهما هذه إلى بلاد الشرق حوالي ثلاث سنوات . وقد التقى الأمير في تلك البلاد التي حل بها في هذه الرحلة بكثير من العلماء وأفاد من علمهم . ومن كان لهذه الرحلة أثرها الفاعل على الجانب العلمي في شخصية الأمير، لما يكون قد تحقق له من الحوارات وتبادل الآراء مع العلماء الذين التقى بهم في هذه الرحلة .

المرحلة الثانية (1832 -1847) (من مجالس العلم إلى ميادين الجهاد)

انتقل الأمير في بداية هذه المرحلة من حياته، على إثر الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830م) من طلب العلم ورعاية الأهل وخدمة الصالح العام إلى قيادة المقاومة الوطنية ضد المحتلين الفرنسيين .

وكان الشعب الجزائري قد تنادى على إثر ذلك لتنظيم عملية الجهاد ضد المعتدين الفرنسيين، واجتمعت كلمة العلماء وعلية القوم ورؤساء القبائل على القيام بهذه المهمة، فرأوا أن يتقدموا من

والد الأمير الشيخ محي الدين يطلبون منه أن يقودهم في هذه المواجهة، وكان رجل علم ودين وحكمة وتدبير، فأدرك من خلال مقابلته ما بين ما تتطلبه هذه المهمة ممن ينهض بها من استعداد نفسي وقوة بدنية وكفاءة عقلية وقدرة متميزة، وبين إمكاناته الذاتية وهو شيخ كبير أن يقدم اعتذاره لأهل الرأي والمشورة من أفراد شعبه على عدم قدرته على القيام بهذه المسؤولية، واقترح لهم ولده الأمير للقيام بها ، وكان يومئذ في مقتبل العمر (23 سنة) شابا يافعا، متدينا متعلما، متحليا بالفضائل، مكتملا في صحته البدنية، كريما شجاعا، متمرسا بأساليب الفروسية، وغير ذلك مما تقتضيه الإمارة من الخصائص الدينية والعلمية والخلقية والخِلقية والصحية والعسكرية، مما جعل والده يرى أنه مستكمل ما تستوجبه الإمارة من شروط، من« الهدى، وعلو الهمة، وقوة الحواس، وكمال الخلق، وجمال الصورة، وشرف النسب، وعزة القوم، والقوة، والفتوة، والعلم ، والحلم، والحماسة، والسماحة، والعزم، والحزم، والتحفظ، والتيقظ، والاتقاء، والارتقاء... إلى غير ذلك من أفراد الفواضل ومكارم الأخلاق ومحاسنها» (8) فتقدم الجماعة – على ضوء ما تقدم - من الأمير وعرضوا عليه رغبتهم من نحو، وما يفرضه عليه الواجب الديني و الوطني من نحو ثان، بأن يكون قائدهم في عملية الجهاد ضد المحتلين، فاستجاب

الأمير لطلبهم وقبل دعوتهم وهو يقدر حق التقدير عظيم شأنها وخطورة مسؤوليتها ، يقول الأمير في ذلك :

لذاك عروس الملك كانت خطيبتي

كفجأة موسى بالنبـوة في طوى

وقد علمتني خير كفء لوصلها

وكم رد عنها خاطب بالهوى هوى

فواصلتها بكـرا لدي تبرجت

ولي أذعنت والمعتدي بالنوى ثوى

وقد سرت فيهم سيرة عمرية

وأسقيت ضاميها الهداية فارتوى

وإني لأرجو أن أكون أنا الذي

ينير الدياجي بالسنا بعد ما لوى [9]

فتمت البيعة الأولى للأمير في سهل غريس بمدينة (معسكر) بتاريخ (03 رجب 1248هـ/27نوفمبر1832) [10]

ولقب الأمير على إثر ذلك بناصر الدين ، يقول محمد العيد آل خليفة في ذلك، مخاطبا الأمير :

مضت لك في أرض الجزائر ثورة

يباهي بها تاريخنا ويماجد

أغرت على الغازين غارات شدة

وبأس بحملات لها أنت قائد

وخضت غمار الحرب للدين ناصرا

تكابد من ويلاتها ما تكابد

فلقبت فيها(ناصر الدين) حلية

بها في مجال البأس حلاك والد [11]

ثم كانت البيعة الثانية(في الثالث من رمضان 1248هـ / 14 فيفري 1833م).[12]

سارع الأمير في أعقاب ذلك إلى تحمل هذه المسؤولية التاريخية، فشكل حكومته من عدة وزراء وعدد من المساعدين والمستشارين للقيام بتدبير شؤون الحياة في مختلف أنحاء الوطن، ثم شرع على التو في وضع أسس الدولة الجزائرية الحديثة، مؤسسات دينية، تعليمية وعلمية: (كتاتيب وزوايا ومساجد) ، مصالح إدارية، سلطات قضائية، هيئات سياسية، مجالس استشارية ، نظم اجتماعية، هياكل اقتصادية، وقوة عسكرية [13].

فقد أنشأ جيشا نظاميا حديثا ، يتكون من عدة فرق : مشاة وفرسان خيالة، وغيرهم . وسن لجيشه ما يضبط مهامه ويحدد مسؤولياته من قوانين عسكرية وخطط تنظيمية ورتب وإشارات وأوسمة عسكرية [14] .

وبنى معملا لصنع الحديد والرصاص والأسلحة والذخيرة وألبسة الجنود في بلدة (تاقدامت)(تشرشل1371) . وأنشأ دارا لسك العملة التي كانت من الفضة والنحاس وسماها (المحمدية)[15].

ثم انطلق الأمير على رأس المقاومة الوطنية يجوب أرجاء البلاد غربا وشرقا، جنوبا وشمالا، يختبر أحوال الرعية، ويتدبر أمورها، وينظم شؤونها، ويتفقد حاجياتها، ويعمل على رفع معنويات الشعب، ويجمع كلمته، ويوحد صفوفه، ويحثه على الثبات والصمود، ويحضه على المحافظة على تماسك جبهته الداخلية ووحدته الوطنية.

وما لبث الأمير أن نظم ضد فلول المعتدين الغاصبين سلسلة من الهجومات، وخاض جملة من المعارك، أتبعها بتنظيم مجموعة من المراسلات والمفاوضات والمعاهدات بينه وبين قادة جيش الاحتلال، وتوالت على هذا النهج غزواته وتعددت معاركه، ومن أهمها :

1 - معركة خنق النطاح الأولى بالقرب من مدينة وهران في (أواخر ذي الحجة 1247هـ 29 ماي 1832م) [16] . وقد أشرف على تجهيز سرية هذه المعركة وقادها والد الأمير الشيخ محي الدين، وكان الأمير يتقدم الصفوف في جبهتها ، فأصابه رمح أثناءها ، فلم يعبء به ، واستمر يواصل القتال ضد المحتلين حتى كان النصر حليف المجاهدين من جنده، وقد أرخ الأمير لبعض مشاهد هذه المعركة وصور شجاعته وبطولته فيها في قصيدته (شددت عليهم شدة هاشمية) [17]. ومن بين ما يصور شجاعته وبطولته في هذه المعركة، قوله :

ألم ترى في خنق النطاح نطاحنا

غداة التقينا كم شجاع لهم لوى

وكم هامة ذاك النهار قددتها

بحد حسامي والقنا طعنه شوى

وأشقر تحتي كلمته رماحهم

ثمان ولم يشك الجوى بل وما التوى

شددت عليهم شدة هاشمية

وقد وردوا ورد المنايا على الغوى

ومازلت أرميهم بكل مهند

وكل جواد همه الكر لا الشوى

2 - معركة خنق النطاح الثانية، وقد قادها الأمير ضد جيش الاحتلال بعد مدة وجيزة من تاريخ المعركة السابقة .

3 - معركة المقطع، بتاريخ (14 ربيع الأول 1254هـ /01 جولييت 1836م)[18] وقد كان النصر حليف جيش الأمير في هذه المعارك كلها، وفي غيرها كثيرة .

وتوالت على هذا الطريق وقائع الأمير وانتصاراته، وتعددت مفاخره وبطولاته، وكثرت مواجهاته وتضحياته، وطالت سنوات جهاده، وامتدت آماده، ، إلا أن موازين القوة بينه وبين أعدائه لم تكن متكافئة، فقد كان الفرنسيون يفوقونه عددا وعدة، وقد انطلقوا

في حربهم ضد شعبه من حصيلة قرون عديدة من الاستقرار السياسي والعدل الاجتماعي والرخاء الاقتصادي والخبرة العلمية والإنجازات الصناعية، بينما كان الشعب الجزائري يواجه هؤلاء المعتدين -وهم يملكون ما يملكون من هذه الإمكانات المتنوعة الضخمة - وهو يئن تحت ثقل أعباء عهد طويل مليء بالأمراض الاجتماعية، و الاضطرابات السياسية، فاعتلت بذلك القدرات النفسية للأمة، وتراجعت قواها العقلية، وتدنت طاقاتها المادية، واهتزت أركان جبهتها الداخلية، فأضعفت هذه الأوضاع قدرات الأمير على الاستمرار في عملية الجهاد بالقدر الذي ظل يجود به طوال خمسة عشر عاما من الصراع والمواجهة والفداء، فاستطاع العدو عقب هذه المدة الطويلة من الصمود والجهاد، ونتيجة لتلك الظروف القاسية العسيرة الخطرة التي تحيط بمقاومة الأمير، أن يفتح ثغرة في خطوط دفاعات جيشه ويتسلل منها ليخترق صفوفه ويستولي على مدينته الحربية المتنقلة (الزمالة) بتاريخ (16 ماي 1843م) [19] . إلا أن هذه الضربة القاسية الخطرة التي أصابت جيش الأمير لم تستطع على شدتها أن تنال من عزيمة الأمير، ولا أن تفت في عضده، فاستمر في كفاحه ونجح في تطويره والانتقال فيه من أسلوب حرب المواجهة المفتوحة إلى أسلوب حرب العصابات التي تقوم على المفاجأة والضربات الخاطفة المباغتة السريعة.

ويمكن القول أن الأمير لو لم يسكن قلبه ما يسكنه من إيمان بالله وثقة في نصره، ويغمر صدره ما يغمره من حب وإخلاص لأمته، وشهامة وشجاعة للذود عنها والتضحية من أجلها، لكان قد ألقى سلاحه، وفر من ساحة القتال من زمان .

وإذن فقد اضطر الأمير إلى الدخول في مرحلة جديدة من جهاده نتيجة ما كان من تناقص الطاقات الذاتية لأمته، وتدني قدراتها، وتردي أوضاعها، وقسوة الظروف الإقليمية والدولية التي تحاصره وتحيط به من كل الجهات - ، وفد وجد الأمير نفسه بذلك أمام ثلاثة خيارات :

1 – الاستمرار في المواجهة مع التناقص الكبير فيما تتطلبه من إمكانات - 2 التوجه إلى داخل بلاد الصحراء 3 – توقيف المقاومة والاستسلام. [20].

فعزم الأمير أمام ذلك أن ينظر في أمره لإيجاد مخرج منه، فجمع أهل العلم والرأي والمشورة من قومه، وأطلعهم على ما أمسى عليه حال كفاحه من جراء طوق الخناق الشديد المضروب حوله، الذي اشترك في صنعه الغاصبون بتفوق قدراتهم وتطور خططهم وساعدهم على ذلك الأقارب بتقاعسهم وتخاذلهم :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند [21]

فتم الاتفاق - برضى قومه - بينه وبين المحتلين الفرنسيين على أن يغادر هو ومن يشاء من أتباعه وخاصته أرض الوطن إلى مدينة الإسكندرية بمصر، أو مدينة عكا بفلسطين [22] ولم يكن الأمير قد أقدم على ذلك عن جبن أو تخاذل أو فرار من أرض المعركة، أو تراجع عن مبدأ الدفاع عن الوطن والتضحية من أجله، وإنما كان قد أقدم على ما أقدم عليه عن حكمة وبصيرة، نتيجة عدم تكافؤ القوة بينه وبين المعتدين من نحو، و تقاعس الأقارب وتخاذلهم عن مساعدته من نحو ثان . [23]

ويوضح ذلك الأمير فيقول : « و لازلت – في أيامي كلها - أرى : المنية ولا الدنية، وأشمر عن أقوى ساعد وبنان. وأقضي حق الجهاد بالمهند والسنان. إلى أن فقدت المعاضد والمساعد وفني الطارف – من أموالي - و التالد . ودبت إلي – من بني ديني - الأفاعي . واشتملت علي – منهم – المساعي . و الآن، بلغ السيل الزبى، والحزام الطبيين . فسبحان من لا يكيده كائد !!. ولا يبيد ملكه وكل شيء بائد .» [24]

إن يسلب القوم العدا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
أجلي تأخر لم يكن يهواه ذلي والخضوع
ما سرت قط إلى القتا ل وكان من أملي الرجوع
شيم الأولى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع [25]

ويحسن التذكير أن المقاومة الوطنية لم تتوقف من بعد رحيل الأمير، واستمر الشعب الجزائري في جهاده يغذي شعلة المقاومة، ويفجر الثورة تلو الثورة، يجود بالدماء ويسخو بالأرواح، ويقدم قوافل الشهداء تلو القوافل ، إلى أن تحقق وعد الله و اندلعت ثورة نوفمبر المظفرة تلك التي كانت خطوة على طريق الأمير المجاهد الرائد، وثمرة من ثمار زرعه، وشعلة من حصاد جهاده، فأشرقت من نورها ونيرانها شمس الصباح، فاستعاد الوطن حريته واستقلاله على أيدي أبطالها من المجاهدين الميامين والشهداء الأكرمين، عليهم رحمة الله أجمعين. يخاطب الشاعر المجاهد محمد العيد الأمير القائد ببعض هذا المعنى فيقول :

إذا طال باستسلامك المر جرحنا فمن جبهة التحرير للجرح ضامد
وكنت لها في ثورة الأمس قائدا وأنت لها في ثورة اليوم رائد
لواؤك معقود بنفس لوائها وليس له إلا جهادك عاقد [26]

المرحلة الثالثة (1848 - 1883)

(من قيادة المقاومة الوطنية في الجزائر إلى قيود الأسر في فرنسا)

لقد مر الأمير في هذه المرحلة الثالثة من حياته بمحطات ثلاث :

1 - المحطة الأولى (1848 -1852م) قضى فيها الأمير حياته أسيرا – غدرا وخديعة - في سجون فرنسا.

2 - المحطة الثانية (1852 -1855م) قضاها بمدينة (بروسة) بتركيا.

3 - المحطة الثالثة (1855 -1883م) قضاها بدمشق الشام .

سار الأمير (يوم 23ديسمبر1847م) في بداية المحطة الأولى من هذه المرحلة بمعية أهله وبعض أتباعه - وفقا للاتفاق المبرم بينه وبين المحتلين - من جامع الغزوات إلى المرسى الكبير بمدينة وهران، والناس من حوله يبكون وينتحبون في جو ملؤه الحزن والكآبة والكدر [27]. ركب الأمير البارجة الحربية قاصدا إحدى تلكما المدينتين : الإسكندرية أو عكا .

وكان الأمير قد صور بصدق وإخلاص ووفاء ما كان يجثم على صدره من أكدار وأحزان وما كان يعصر قلبه من آلام وأشجان وهو يتأهب في هذا الجو الكئيب المحزن إلى مغادرة أرض وطنه الذي أحبه وجاهد في سبيله وضحى من أجل حريته وعزته :

قلدت يوم البين جيد مودعي دررا نظمت عقودها من أدمعي
وحدا بهم حادي المطايا فلم أجد قلبي ولا جلدي ولا صبري معي
ودعتهم ثم انثنيت بحسرة تركت معالم معهدي كالبلقعي
يا نفس قد فارقت يوم فراقهم طيب الحياة ففي البقا لا تطمعي[28]

إلا أن البارجة التي كانت تقله ما لبثت أن حادت عن جادتها وانحرفت عن مقصدها، ثم أرست - غدرا وخيانة ونكثا للعهود - في ميناء طولون بفرنسا (يوم 24 محرم 1364هـ / الفاتح من جانفي 1848م) [29].

لقد استاء الأمير لهذه المكيدة وهذه الخديعة، واشتد غيظه وتفاقم كمده، وكاتب المحتلين الناكثين لعهودهم ، مستنكرا عليهم خداعهم وخديعتهم، ولكن دون جدوى، وماذا ينفع ذلك وقد ظل أولئك المحتلون -كدأبهم – ينكثون المواثيق ولا ينفكون يختلقون الأعذار الواهية والمبررات الكاذبة؟ ومتى كان الغاصبون يصدقون؟ ومتى كانوا يوفون بعهودهم إذا عاهدوا ؟

وقد ظل حزن الأمير يشتد وكربه يزداد - مع مرور الأيام - لسوء حاله وحال من بمعيته (الثماني والثمانين نسمة)[30]. فكاتب بذلك المحتلين، فحاولوا - عبثا - أن يهدؤوا من روعه ويطمئنوه على حاله وحال أتباعه، فعرضوا عليه أن يتخذ من فرنسا مسكنا وإقامة له، فرفض الأمير ذلك ورد عليهم بقوله : « إني لا أقبل هذا، ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج، وهاأنا بين أيديكم فافعلوا ما بدا لكم. ولا يمكن أن أترك طلب الوفاء بالعهد ما دمت حيا » [31] ..

إلا أن المحتلين أصموا آذانهم عن سماع جواب الأمير ذلك، واستمروا في مخططهم المرسوم لإطالة فترة أسره ببلادهم وتحت أيديهم ، واستمروا في غيهم ولم يرتدعوا عن ظلمهم وأقدموا على نقل الأمير يوم (21 أفريل 1848م) إلى مدينة (بو pou) ومنها إلى (أمبوازamboise) فقضى حوالي خمسة سنين أسيرا بسجنها.

وقد قام بعد هذه المدة الطويلة من سجن الأمير رئيس الجمهورية الفرنسية لويس نابليون الثالث بفك أسره وإطلاق سراحه (يوم 16 أكتوبر 1852م)، فنقل إلى مرسيليا ومنها إلى إسطنبول (الأستانة) عاصمة تركيا [32] . ولماذا لم ينقل الأمير إلى الإسكندرية ؟ ولم لم ينقل إلى عكا ؟كما ينص على ذلك الاتفاق المبرم في هذا الشأن بينه وبين المحتلين .

وصل الأمير إلى إسطنبول (يوم الجمعة 07 جانفي 1853م)، ثم تنقل منها بعد حوالي أسبوع إلى جزيرة (بروسة) بتركيا نفسها [33]. فأقام بها مؤقتا حوالي ثلاث سنوات :

(من 1853 -1855م)، فأقبل فيها على العبادة والذكر والمطالعة وفعل الخير، وقد عبر عن شعوره نحو هذه المدينة وأهلها في هذه الأبيات :

علي محال بلدة غيرها أرى بها الدين والدنيا طهورا ولا نجسا
وجامعها المشهور لم يك مثله به العلم مغروس به كم ترى درسا
بها آل عثمان الجهابذة الألى أشادوا منار الدين وابتذلوا النفسا
مكارم أخلاق وحسن شمائل ولين طباع واللطافة لا تنسى
سقى الله غيثا رحمة وكرامة أراض بها حل الأحبة من برسا [34]

ثم انتقل الأمير من هذه المدينة 1855م ليستقر به المقام أخيرا بدمشق، فقضى بها بقية حياته، إلى وفاته 1883، وكان له بها طوال هذه المدة جهود علمية ونشاطات اجتماعية خيرية، ومواقف

إنسانية تاريخية، ومما يسجل له من ذاك في هذه الفترة : موقفه من الفتنة الطائفية التي نشبت بين المسيحيين والمسلمين في لبنان وسوريا سنة 1860م ، وسعيه بدافع شعوره بالواجب الشرعي وتمثله للتعاليم الإسلامية لإطفاء نار هذه الفتنة، وقيامه بحماية أهل الذمة من المسيحيين، وإنقاذهم وإيوائهم تحت جناحه [35] .

وقد زار الأمير في هذه المرحلة من حياته بيت المقدس الشريف، وبعض المدن السورية، ثم سافر إلى الإسكندرية 1862م، ومنها إلى جدة ثم مكة المكرمة، فحج واعتمر للمرة الثالثة، ثم سافر إلى المدينة المنورة، فزار بها مقام الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفي 1865م توجه الأمير إلى إسطنبول مرة أخرى، ومنها قصد باريس فلندن .

ثم سافر في 1869م إلى مصر تلبية لدعوة وجهت إليه لحضور حفل افتتاح قناة السويس.

استمرارية المزاوجة ما بين مستلزمات السيف ومتطلبات القلم

لقد كادت المهام الاجتماعية والمسؤوليات العسكرية والسياسية التي اضطلع بها الأمير طوال المرحلة الثانية من حياته، بصفته : قائد مقاومة، وزعيم أمة، ومؤسس دولة، أن تشغله عن العناية اللازمة بما تقتضيه عملية الطلب والتحصيل العلمي من استعداد وتفرغ وتأمل واستمرارية، بيد أنه استطاع بعلو همته وقوة شخصيته أن يتغلب على هذه العوائق و الانشغالات، وينجح في أن يجمع في

وقت واحد ما بين مستلزمات السيف من (حكمة وشجاعة وإقدام وفروسية)، وبين متطلبات القلم من(ذكاء واجتهاد وحرص وقراءة)

استمرارية التحصيل العلمي : استطاع الأمير - وهو في شيخوخته - في هذه المرحلة الثالثة أن يواصل ما بدأ به حياته في صباه في المرحلة الأولى من طلب العلم والمعرفة، فامتدت بذلك مرحلة التحصيل العلمي في حياته زمنا طويلا من طفولته إلى وفاته، مصداقا للحديث الشريف : « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » .

وقد استمر الأمير في هذه العملية التكوينية : دارسا ومدرسا ومصنفا، خلال رحلاته وأسفاره في مختلف البلاد التي ارتحل إليها تلك التي مكث فيها بعض الوقت الحجاز، بغداد، فرنسا ، تركيا ، وتلك التي أقام بها زمنا طويلا، فختم فيها حياته سورية.

لقد عكف الأمير على الدراسة والتأليف والتدريس لخاصته في فرنسا التي مكث بها سجينا طوال سنوات خمس في (أمبواز : 1848 -1852م) .كما كان له شيء من ذلك أثناء إقامته في جزيرة (بروسة) بتركيا (1852 -1855م).

ثم تفرغ الأمير تفرغا يكاد يكون كليا للعكوف على هذه العملية التكوينية السلوكية (دراسة وتدريسا، قراءة وتأليفا، عبادة وتصوفا) ابتداء من انتقاله إلى الشام وإقامته فيها إلى وفاته (1855 -1883م) . فقد أخذ العلم بسورية عن بعض علمائها، وكان

له مع بعضهم الآخر لقاءات وبعض الحوارات وبعض النقاشات، وبعض التأثير والتأثر . وقد قام في الوقت ذاته بإعطاء بعض الدروس في بعض العلوم الدينية بالجامع الأموي بدمشق ، وألف في هذه الفترة كتابه (المواقف) في التصوف .

وقد قرأ الأمير خلال مراحل حياته عمن سبق ذكرهم من الشيوخ هذه العلوم الدينية : (التفسير، الحديث، الفقه، التوحيد، التصوف، المنطق، الفلسفة الإسلامية، الفلسفة اليونانية، الطب، النحو ، الأدب،التاريخ، الجغرافيا، الفلك، الحساب، وغيرها.)

وقد رجع الأمير في عملية التحصيل هذه إلى جملة من الكتب من بينها : (كتب تفسير القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف، ومن كتب العقيدة : كتاب العقيدة السنوسية، وفي الفقه الرسالة لأبي زيد القيرواني، والشفاء للقاضي عياض، وألفية ابن مالك في النحو والإحياء للغزالي، والفتوحات المكية، وترجمان الأشواق لمحي الدين بن عربي وغيرها .)

يصور الأمير بعض المعالم من شخصيته العلمية ، فيقول:

فإن شئت علما تلقني خير عالم

وفي الروع أخباري غدت توهن القوى

لنا سفن بحر الحديث بها جرى

وخاضت فطاب الورد ممن بها ارتوى

وإن رمت فقه الأصبحي فعج على

مجالسنا تشهد لواء العنا دوا

وإن شئت نحوا فانحنا تلق ما له

يذعن البصري زهدا بما روى [36]

وقد رسم ولده محمد صورة تقريبية عن هذه العملية التكوينية في حياة الأمير، عرف فيها ببعض شيوخه وذكر بعض العلوم التي أخذها وبعض المصنفات التي ألفها، فقال : « أخذ الفقه عن والده، وغيره من العلماء . ورحل إلى وهران، وأخذ عن علمائها. وكان حافظا لكثير من اللغة العربية، والقدر الوافر من صحيح البخاري، عن ظهر القلب، مجازا فيه عن والده. وسمعه من الشيخ الإمام المحدث أبي أحمد، عبد الرحمن الكزبري، بدمشق الشام، أيام إقامته فيها، صحبة والده. وأخذ أيضا عن الإمام، ضياء الدين مولانا الشيخ

خالد النقشبندي السهروردي . وكان يكثر التردد إليه. وانتفع منه. وبرع في فنون علوم الشريعة والحقيقة. وله تآليف عديدة، وحسبك منها: كتاب المواقف في علم الحقيقة » [37]

كما اطلع الأمير على التوراة والإنجيل، وهما على التوالي كتابا الديانتين: اليهودية والنصرانية .

وقد اشترى الأمير - حرصا منه على توطيد صلته بالعلم والعلماء - مبنى مدرسة دار الحديث النووية الأشرفية بدمشق، ثم

أوقفها على نشر العلم و العبادة والذكر وفعل الخير، وقد افتتح فيها دروسه لصحيح البخاري وغيره من الكتب العلمية [38]

وقد عكف الأمير على القراءة والكتابة في هذه الحقول، فكان لذلك تأثيراته الكبيرة على استعداداته الشعورية وملكاته الفكرية، وتطبيقاته العملية، وقراءاته وكتاباته، وتفرغه للعبادة ،وانكبابه على الذكر والفكر والتأمل.

و كان لهذه القراءات الكثيرة والمراجعات المتعددة والكتب المتنوعة والاتصالات العديدة وما تخلل ذلك من وجوه الاحتكاك والحوار، وتبادل الآراء وتلاقح الأفكار، الفاعلية الفاعلة على الجانب العلمي في شخصية الأمير، عن طريق توسيع أفق ثقافته، وتعميق دائرة مداركه، وتنويع مجالات معارفه، وتطوير خبراته وتجاربه .

التفرغ للعبادة والتصوف : لقد خلص الأمير في هذه المرحلة الأخيرة من حياته إلى التفرغ للعبادة والذكر، والعكوف على الزهد والتصوف. ويحسن التذكير في هذا المضمار أن جذور الميول الصوفية عند الأمير تعود إلى وقت مبكر من حياته، وتبدأ من أيام طفولته وشبابه ونشأته وتربيته على يدي والده العالم الصوفي، وإلى عهد تلمذته على أيدي بعض الشيوخ من المتصوفة، وإلى لقاءاته وحواراته مع بعض هؤلاء أثناء رحلاته في بعض البلدان التي حل بها، وإلى خلوته في الحجاز، وأثناء سجنه بفرنسا. غير أن هذه

النزعة الصوفية عند الأمير قد ازدادت عمقا في وجدانه وازدادت رسوخا في سلوكه أيام إقامته الطويلة بدمشق، واحتكاكه فيها بالمتصوفة من أتباع الشيخ محي الدين بن عربي وأتباع غيره من المتصوفة والمريدين، وبعض شيوخ الطرق في كثير من بيئاتهم .

وفي هذه الفترة (1862م) ارتحل الأمير إلى الحجاز فمكث به نحو سنة ونصف السنة، فحج واعتمر للمرة الثالثة، وأخذ العلم وبعض الأوراد وألوان من الذكر وشيء من التصوف عن شيخه العالم الصوفي محمد الفاسي مقدم الطريقة الشاذلية،نزيل المدينة المنورة

وقد صور الأمير في قصيدته (أستاذي الصوفي) بعض ما يكنه من عواطف ومشاعر نحو شيخه السابق الذكر، وبعض ما غمر صدره مما أخذ عنه من ألوان الوجد والفيوضات ، وأنواع الذكر والتصوف، يقول الأمير في هذا المعنى من قصيدته السابقة ، هذه الأبيات :

أمسعود جاء السعد والخير واليسر

وولت جيوش النحس ليس لها ذكر

ليالي صدود وانقطاع وجفوة

وهجران سادات .. فلا ذكر

الهجر أمولاي طال الهجر وانقطع الصبر

أمولاي هذا الليل هل بعده فجر ؟

غياثي من أيدي العداة ومنقذي

منيري مجيري عندما غمني

الغمرمحمد الفاسي له من محمد

صفي الإله ا لحال والشيم الغر[39]

ويمكن القول أن هذه الميول الصوفية في حياة الأمير تتوزع على ثلاث مراحل :

1 - تغطي المرحلة الأولى المساحة الزمنية لشبابه وكهولته ومدة قيادته للمقاومة الوطنية (1820 -1847م)، فتشمل بذلك أيام تربيته ونشأته على يد والده ودراسته على يدي طائفة من شيوخه المتصوفة ولقاءاته مع بعض هؤلاء أثناء رحلاته في كثير من البلاد .

2 - تستغرق في هذه المرحلة الميول الصوفية وجدان الأمير وسلوكه طوال السنين الخمسة من أسره بفرنسا (1848 -1852م) .

3 - تؤرخ المرحلة الثالثة والأخيرة من حياته لعكوفه على العبادة والذكر، وتفرغه للزهد والتصوف، من بداية إقامته بدمشق إلى وفاته بها -رحمه الله - (1855 - 1883م) .

ويمكن أن يلمس المتلقي بكل وضوح هذا التوجه الصوفي في شخصية الأمير من خلال جملة من آثاره، يأتي في مقدمتها اثنان : ديوانه، وكتابه (المواقف) .

وفاته : توفي الأمير إلى رحمة الله على الساعة السابعة من مساء يوم الجمعة، (التاسع عشر من رجب 1300هـ / 24

مـــاي 1883م) [40].. ومما يحسن التذكير به في هذا الصدد أنه ولد في رجب، وبويع في رجب، وتوفي - رحمه الله - في رجب، عن عمر يناهز 76 سنة، بمسكنه في ضاحية (دمر) إحدى مصائف مدينة دمشق . وقد صلي عليه في الجامع الأموي، ودفن بجوار ضريح الشيخ محي الدين بن عربي بأعالي شارع الصالحية - حي المهاجرين - على سفح جبل قاسيون، وقد كتب على شاهدة ضريحه من شعر الشيخ عبد المجيد الخاني هذه الأبيات :

لله أفق صار مشرق دارتي قمرين هلا من ديار المغرب
الشيخ محي الدين ختم الأوليا قمر الفتوحات الفريد المشرب
والفرد عبد القادر الحسني الأمير قمر المواقف ذا الولي ابن النبي
من نال مع أعلى رفيق أرخوا أذكى مقامات الشهود الأقرب[41]

وقد نقل جثمانه الطاهر من دمشق في غضون شهر جولييت 1966 إلى أرض وطنه الجزائر، بعد تحريره وتطهيره في (05جولييت 1962) فأخذ الأمير مكانه في مقبرة (العالية) بالجزائر العاصمة إلى جانب الذين سقطوا في ساحة الشرف والفداء من شهداء الجزائر المجاهدة عليهم رحمة الله أجمعين ، على امتداد كفاحها في العصر الحديث ، من ثورة المقاومة الأولى ضد المعتدين الفرنسيين بقيادة المجاهد الأمير، إلى ثورة نوفمبر، ثورة النصر والتحرير .

الهوامش:

1 - الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر: 923:2ط 2 – دار اليقظة العربية دمشق 1384 - 1964 .

2 - ديوان الأمير،ص :29، تحقيق د/ممدوح حقي -دار اليقظة العربية -دمشق 1960.

3 -4 -5 - تحفة الزائر ، 02: 932 (مصدر سابق) .

6 -7 -د/ناصر الدين سعيدوني : عصر الأمير عبد القادر، ص: 157،156 –مؤسسة البابطين الكويت .2000

8 - تحفة الزائر ، 2: 932 (مصدر سابق) .

9 - ديوانه : ص35 .

10 - تحفة الزائر ، 01: 154 .

11 - ديوانه :ص 507 .

12 -13 -14 - تحفة الزائر ، 01: 165،163، 166 ، 191

15 - شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر ، ص:137 .ترجمة د/ أو القاسم سعد الله – ط02 الجزائر 1982 -

16 - تحفة الزائر، 01: 148 .

17 - ديوانه : ص72 .

18 - تحفة الزائر ، 01: 237.

19 -20 - شارل هنري تشرشل : حياة الأمير عبد القادر ص 213، 245 (مصدر سابق) .

21 - هذا البيت لطرفة بن العبد .

22 -23 -24 -25 - تحفة الزائر، 01 :500 ، 492 ،498، 499 .

26 - ديوانه : ص507 .

27 - تحفة الزائر، 02: 509 .

- د/ ناصر الدين سعيدوني : عصر الأمير عبد القادر ، ص:.171

29 - تحفة الزائر، 02: 511.

30 - ناصر الدين سعيدوني : عصر الأمير عبد القادر، ص: 251 .

31 -32 -33 - تحفة الزائر، 02: 511، 575 ، 580.

34 - ناصر الدين سعيدوني : عصر الأمير عبد القادر، ص: .174

35 - تحفة الزائر، 02: 630، 632 .

36 - ديوانه : ص31 .

37 - 38 - تحفة الزائر، 02: 932، 112 .

39 - ديوانه : ص35 .

40 -41 - تحفة الزائر، 02 : 857 ، 858 .